الرحالة إلى زاوية الهامل في عهد لالة زينب1897–1904

The travelers to Zawyat al-Hamil during the reign of Lala Zainab, 1891-1904

محمود بوكسيبة *

جامعة المسيلة – الجزائر

mahmoud.bouksiba@univ-msila.dz

تاريخ الارسال: 2020/02/16 تاريخ القبول : 2020/02/25 تاريخ النشر: 2020/12/31

ملخص:

بربوع أولاد نائل، أسس سي محمد بن بلقاسم زاويته بالهامل سنة 1862، وقد عرفت الزاوية بثرائها وانتشارها وكثرة أتباعها وتزعمها للجانب الروحي في تلك الربوع، ولكن مع وفاة الشيخ المؤسس وقع تنافس كبير حول خلافته وانتهى ذلك التنافس بأزمة حادة عرفتها لالة زينب و أثرت على صيرورة الزاوية .

وانطلاقا من المصالح الاستعمارية راهنت سلطات الاحتلال على سي محمد بن الحاج محمد مستظهرة رسالة الشيخ المؤسس المقتضبة، في حين استظهرت لالة زينب وثيقة الحبوس الموثقة لصالحها وتلت بذلك المشيخة متحدية بذلك الحاكم العسكري بوسائل حضارية، في حين لجأ ذلك الحاكم إلى كل وسائل العنف والإرهاب و الحصار والتغريم والإقامة الجبرية ضدها الأمر الذي أثر على لالة زينب و الزاوية معا.

أثناء تلك الأزمة زار الزاوية رحالة كثر مثل دوقالون وبول أودال لأغراض سياحية، علمية وفنية ولكن الرحالة الوحيدة التي استطاعت أن تكشف ذلك الإرهاب الفرنسي ضد الأهالي ممثلة في شخص "لالة زينب" هي الرحالة ايزابيل ابيرهارد التي استطاعت

* المؤلف المراسل

بكتاباتها و خلفيتها أن تفضح السياسة الاستعمارية، فسكت الحاكم العسكري وبقيت لالة زينب على رأس الزاوية القاسمية حتى وفاتها .

Abstract

By wlad Naile, Si Mohamed bin Belkacem established his corner of the Hamel in 1862, and Al zawiya was known for its richness and spread and its many followers and its claim to the spiritual side in those quarters, but with the death of the founding cheikh a great competition took place about his succession and that competition ended with an acute crisis that has known and affected Becoming a corner.

Proceeding from the colonial interests, the occupation authorities bet on Si Mohamed bin Al Haj Mohamed, demonstrating the message of cheikh Al-Awsad Al-Muqtada. It affected Zainab and Zawiya together.

During that crisis, many travelers such as Dougallon and Paul Udal visited the Zawiya for tourist, scientific and youthful purposes, but the only traveler who was able to reveal that French terrorist against the people represented in the person of "Lala Zainab" is the traveler Ezebel Eberhard who, with her writings and background, was able to expose the colonial policy and dissolved The military ruler and Zainab's machine remained at the head of the al-Zawiya al-Qasimiya until her death.

Key words**:** Oulad Nail, Zaouia d'El Hamel, military authorities, Lalla Zineb, Paul Eudel, Charles de Galland, Isabelle Aberhard

المقدمة:

قبل وفاة الشيخ المؤسس وحفاظا على المصالح الاستعمارية، أعدت السلطات الاستعمارية العدة ليتولى سي محمد بن الحاج محمد المشيخة، ومع وفاة المؤسس استظهرت لالة زينب وثيقة الحبوس الموثقة من طرف والدها لتولي المشيخة ونتجت بذلك أزمة حادة استعملت فيها لالة زينب كل الوسائل الحضارية للدفاع عن حقها، في حين استعملت السلطات العسكرية كل وسائل الحصار والتغريم والإقامة الجبرية ضدها وكانت نتائج كل ذلك كارثية على خليفة الشيخ المؤسس وعلى الزاوية أيضا .

في خضم تلك الأزمة زار الزاوية عديد الرحالة مثل "دوقالون" و "بول أودال" و"ايزابيل ابيرهارد" .

ولئن كانت كتابة دوقالون وأودال قد جاءت في بداية الأزمة إلا أن كتابات ايزابيل جاءت في قلب الأزمة واستطاعت الكاتبة بحدة كتاباتها و احترافيتها وخلفيتها أن تفك الحصار على لالة زينب وتسمع أزمتها لكل العالم، الأمر الذي جعل الحاكم العسكري يتوقف عن إرهابه وبقيت لالة زينب على رأس الزاوية حتى وفاتها .

الخطة :

المبحث الأول: الظرف العام لزاوية الهامل في عهد لالة زينب 1897-1904.

المبحث الثاني: الرحالة الذين زاروا زاوية الهامل في عهد لالة زينب.

المبحث الثالث: كتابات الرحالة حول الزاوية وحول لالة زينب.

الخاتمة

المبحث الاول : الظرف العام لزاوية الهامل في عهد لالة زينب 1897-1904

نظرا للمصالح الاستعمارية، وضعت المصالح الاحتلال نصب عينيها الشيخ محمد بن الحاج محمد ليكون خليفة الشيخ محمد بن أبي القاسم على الزاوية وقد اعتمدت في ذلك على الرسالة المقتضبة التي كتبها الشيخ المؤسس ولكن لم يخطر ببالها وصية الشيخ المؤسس لابنته زينب والتي بفضلها أحدثت لالة زينب ما لم يكن يخطر على بال كروشار، بحيث تمسكت بتلك الوصية المكتوبة بتاريخ 31 أوت 1877 والموثقة لدى قاضي تامسة بتاريخ 09 أفريل1881[1]، وتمسكت بمشيخة الزاوية والتركة معا، في حين السلطات الاستعمارية تمسكت بتلك الرسالة و استظهرتها ليتولى الشيخ محمد بن الحاج محمد الخلافة والتركة معا وحشدت المقاديم لتأييدها والخضوع لتلك الرسالة[2]، وصعبت

الأمور على قائد القطاع العسكري ببوسعادة الموكل بترتيب أمر الزاوية ويحفظ المصالح الفرنسية دون معارضة وأعطى تعليمات لقاضي تامسة للشروع في إجراء تسوية قضائية للانتهاء من تقسيم التركة ثم التوجه لتنصيب الشيخ محمد بن الحاج محمد على رأس الزاوية[3] ولكن لالة زينب رفضت توليه غيرها بالكيفية التي أعدها القاضي ودخلت في صراع مع الإدارة العسكرية التي وقفت إلى صف ابن عمها وساندته، فقد وقفت بوصيتها رفقة أنصارها وعملت مثلما عمل ابن عمها على مراسلة الإخوان والمقاديم[4] وحفظ ما تحت أيديهم من أملاك ومواشي وعقارات حتى يأتي من يقبضها من طرفه[5].

المطلب الاول : مضايقات الإدارة الاستعمارية وتحدي لالة زينب

أمام إصرار لالة زينب وتمسكها بخلافة والدها عمل القائد الأعلى لدائر بوسعادة على مضايقتها بغض الطرف عن اقتحام الشيخ محمد بن الحاج محمد وإخوانه لمنزل السيدة زينب بالقوة قصد الحصول على المفاتيح والسقف والأثاث والمال وسجلات الملكية، فعملت لالة زينب على مراسلة القائد العام لقطاع الجزائر والحاكم العام تطلب منهم توجيه أوامر لحفظ سلامتها وتركة والدها وثروة الأيتام[6] فتدخل قائد القطاع العسكري لبوسعادة ثانية لإرغام الجميع على قبول رسالة الشيخ المؤسس يوم 27 جوان 1897، كما عمل على منع الزيارات على لالة زينب وهدّد كل من يزورها بالنفي، ثم عمل على عدم إعفائها من الضرائب وأخبرها على دفع الضرائب المترتبة على الزاوية[7] كما عمل على اعتقال أولاد المقراني المساندين لها بحجة اتصالهم بالشيخ بوعمامة ولإطلاق سراحهم اشترط على لالة زينب أن تترك الخلافة لابن عمها[8]، وكل ذلك جعل لالة زينب في مأزق حقيقي ووضع الزاوية في تدهور كاد أن يؤدي بها إلى الزوال.

المبحث الثاني: الرحالة الذين زاروا زاوية الهامل في عهد لالة زينب

في ذلك الظرف الذي ميز تولية لالة زينب المشيخة ومالا فيه من إرهاب فرنسي لتتنازل عن الخلافة زار الزاوية الرحالة شارل دو قالون وبول أودال وإيزابيل ابيرهارد.

المطلب الأول: الرحالة شارل دوغالون 1851-1923

الفرع الاول: نشأته

ولد الرحالة شارل بالدويرة (الجزائر العاصمة) في 17 ديسمبر1851 وفي 21 أكتوبر1871 بدأ تكوينه الجامعي كطالب بثانوية الجزائر، ثم سافر إلى فرنسا ليلتحق بالمجمع المدرسي ايكس "Aix" سنة 1872، وعاد مجددا إلى ثانوية الجزائر في نهاية السنة نفسها وكلف بالتدريس.

أما في سنة 1874 فقد تم تعيينه بثانوية تورنونو Tournono ليصبح بروفيسور في علم البلاغة والبيان سنة 1875 بثانوية مونتوبانMontauban ، و عاد إلى الجزائر سنة 1886 ولم يغادرها حيث أسندت له مهمة تدريس الطور الخامس ثم الرابع ثم الثالث بتاريخ 04أوت1891 وكلف بإدارة مهام ثانوية الجزائر الصغيرة إلى غاية فيفري 1902م كمكلف ، في هذه الفترة كممثل بمحافظة الجزائر في معارضها الدولية من بينها معرض سنة 1900.

وفي عام 1908م ترأس قائمة انتخابية يطلب من أصدقائه النواب الذين منحوه ثقتهم لينتخب أول مرة رئيساً لبلدية الجزائر عام 1910 واعيد انتخابه مرّة ثانية عام 1912 إلى غاية سنة 1919 وبعدها تفرغ للفن والموسيقى التي أحبها كثيرًا، كما أحب الأدب وخاصة الأدب الجزائري[9].

ومن أهم إنجازاته أثناء فترة رئاسته لبلدية الجزائر، بحديقة الحرية التي أنشأها سنة 1915 والتي تقع في شارع ديدوش مراد وتتربع على مساحة تقدر بثلاثة هكتارات وتظم المتحف الوطني للآثار القديمة والآثار الاسلامية بالإضافة إلى الإدارة المركزية والمكتبة، مدرسة ابتدائية ونصبا تذكاريا تخليدا له، كما تحتوي على أجمل وأروع الأشجار والنباتات والزهور المشكلة في لمختلف المساحات الخضراء وكذا المساحات الأخرى للاستراحة مزينة بمربعات خزفية يرجع تاريخها للعهد الإسلامي[10]، وقد تجمعت في شخصه صفة البشاشة واللطف والابتسامة وطيبة النفس وسماحتها والعدل والاحترام لخصومه، توفي يوم 22مارس1923 عن عمر ناهز الواحد والسبعين[11].

الفرع الثاني: مؤلفاته:

- كتاب روعة الجزائر.
- كتاب بجاية.
- تاريخ ثانوية الجزائر.
- التسلق في جرجرة.
- رحلة إلى بوسعادة وزاوية الهامل وهنا هو الذي يهمنا في عملنا هذا.

الفرع الثالث: رحلته إلى الزاوية

رحلة المعني كانت من الجزائر العاصمة باتجاه مدينة أومال Aumale (سور الغزلان حاليا) ثم مدينة سيدي عيسى وعين الحجل فمدينة بوسعادة بتاريخ 29 مارس 1897 ليغادرها بإتجاه زاوية الهامل ويعود بعدها لمواصلة مسرته نحو مدينة المسيلة وهي آخر محطة في رحلته ليغادرها رفقة مرافقيه إلى مدينة الجزائر عبر قطار برج بوعريريج في شهر مارس 1899[12].

المطلب الثاني: الرحالة بول أودال : Paul Eudel (1899) [13]

الفرع الأول: نشأته

ولد الرحالة بول أودال بتاريخ 23 أكتوبر 1837 بمنطقة كروتوي Crotoy شمال فرنسا، توقف عن الدراسة في مرحلة التعليم الثانوي بسبب قلة الموارد المالية التي تسمح بمواصلة التعليم[14]، بدأ حياته مبكرً في السفن البحرية ثم سافر إلى جزيرة رينيون Reunion حيث يقيم عمه إذ بقي إلى جانبه سنتين ثم عاد للعمل في البحرية إلى أن تمكن من الحصول على وظيفة مدير لمعمل تكرير السكر بمنطقة نانت Nantes[15].

عرف من صغره بشغفه وحبه للاطلاع وكما عرف بفضوله لمعرفة الأشياء وجمع التحف والأشياء النادرة فكان همه السفر والترحال في أوربا، هذا الفضول دفعه غلى الاهتمام بالأدب ومتابعة الحركة الثقافية والمشاركة في الجرائد بعدّة مواضيع وأصبح من

أشهر كتاب الأخبار في جرائد عالمية مثل Le Tigaro , Le Temps وعضوا بعدة جمعيات ثقافية وعلمية مثل الجمعية الأثرية لمنطقة لوارLoire وانتخب عضوا بالمجلس الأدبي[16]، ثم انتقل سنة 1877 للعيش في باريس وهناك كرّس جهده للفن والأدب في باريس وقد جعلت منه ثقافته وأسلوبه أشهر محرري الصحف في باريس وبها كتب أشهر مقالاته المعروفة بيوميات فندق دروت بجريدة المستقبل L'indépendant توفي سنة 1911 بمدينة بلوازBlois بمقاطعة لواز بوسط فرنسا[17].

الفرع الثاني: مؤلفاته

ومن مؤلفاته حوالي 39 مؤلفا منها أربعة تهم الجزائر ومنطقة المغرب العربي أشهرها:

- Dictionnaire des bijoux de l'Afrique du nord L'orfèvrerie Algérienne et Tunisienne
- Hivernage en Algérie D'Alger à Boussaada[18]

الفرع الثالث: مسار رحلته

لقد عرف بول أودال بحبه للسفر والبحث عن الجديد واقتناء التحف لذلك عادة ما يلقب بالجامع Le collectionneur.

فخلال رحلته الشتوية التي قادته إلى الجزائر أبدى استعداده للقيام بأبحاث ودراسات تدخل في اهتمامه إن وجد من يمول مشروعه حول الحلي الجزائرية وقد ذكر ذلك في رحلته أن الحلي تهمه كثيرا وعادة ما يجد نفسه واقفا أمام محلات ودكاكين الصياغة للتمعن في النماذج المعروضة، ورحلته التي كان عنوانها من الجزائر إلى بوسعادة في ربيع 1899 كان [19] الغرض منها البحث على مجوهرات وحلي الأهالي، وقد أثمرت هذه الرحلة عن عدة أعمال فنية وأدبية مثل التي ذكرتها سابقا.

وعليه فإن رحلته هذه كما وصفها عمر بن قينة أنها ضرب من السيرة ذات طابع أدبي وتميل إلى الوصف والتقرير اعتمادا على المشاهدة، وقد كانت الحلي العربية هي الهدف الأساسي لرحلته التي اتخذت شكلا سياحيا بخلفية سياسية ما، لكنها تبقى في كل الحالات استطلاعية رغبة في المعرفة[20].

المطلب الثالث: الرحالة ايزابيل ابيرهارد (1877–1904)

ايزابيل ابيرهارد كاتبة مبدعة ورحالة[21]، أفادت بكتاباتها التاريخ الجزائري[22] وهي شخصية مثيرة للجدل يسود هويتها الكثير من الغموض خاصّة بعدما وجد كل شيء مسجل عنها في تقارير الشرطة السرية السويسرية من الاسم والمهنة والعنوان والوجه...وأنها مجهولة الأب وكل شيء مسجل عنها[23] بدقة.

أمام جرأتها وكتاباتها حول الأهالي وظلم السلطات الاستعمارية لهم، وأمام موقفها بعد ما ضربها أحد أتباع الطريقة التيجانية أو ما سمي بقضية البهيمة بوادي سوف ومحاكمة المعتدي عليها وعفوها عنه[24]، كل ذلك جعل السلطات الاستعمارية تصدر الحكم بحقها يوم 02ماي1901 وحكم بطردها من الجزائر نظير طريقة حياتها وتصرفاتها التي كانت مريبة في نظر الاستعمار فقالوا عنها عميلة للروس وعميلة للألمان ووصفوها باللقيطة والعاهرة التي تعيش من جسدها، وجاءت التقارير الفرنسية حولها أنها جاسوسة وأنها غريب وغير عادية فهي روسية الأصل ألمانية الاسم، جزائرية المظهر، ترسم تكتب، وتتكلم عدة لغات[25]

وعليه فلم تكتف السلطات الاستعمارية أمام مواقفها بطردها بل عملت على أن يحوم الغموض حول شخصيتها وحول نسبها وكل ذلك محاولة منهم لتلطيخ سمعتها أمام مواقفها من القضية الجزائرية ومساندتها المستمية للشعب الجزائري في كتاباتها وما أكثرها وكانت فرنسا تهدف إلى زيادة الغموض حول المرأة و طمس حقائق كانت تقف عليها وتكتب عنها بشجاعة لمواصلة انتهاكه لحقوق الشعب الجزائري في صمت و أهانتها لأن الاستعمار كان يعرفها انها عازمة على كل شيء دون خوف أو عقدة

نقص[26]، ولكن الحقيقة هي عكس تلك الإشاعات التي روجت حول تلك الكاتبة المبدعة، وللوقوف على الحقيقة المرة والوجه الحقيق لهذه المرأة، الجزائرية نعرج على :

الفرع الأول ولادتها ونسبها ونشأتها

1- نسبها وولادتها

ولدت ايزابيل ابيرهارد يوم 17 فيفري سنة 1877 بجنيف السويسرية، أما أمها والتي قد سمت على اسمها فهي ناتالي دوموترد شرلوت ابيرهارد وهي ارستقراطية روسية من أصل ألماني وقد كانت أمها متزوجة من جنرال روسي وبعد مرض أمها نصحها الأطباء بالسفر فاختارت سويسرا، وسافرت العائلة المكونة من أمها وزوجها وأبنائها رفقة مربي الأولاد الكسندر تروفيموسكي[27] واستقروا بمدينة مونترو غرب جينيف ولم يمكث الجنرال كثيرا وعاد غلى روسيا وتوفي بها سنة 1873، أما الأم فقد بقيت مع الأولاد والمربي الذي يمنع القانون ترسيم رواحه منها ولدت ايزابيل ابيرهارد وتبنّاها[28]، وتؤكد ايزابيل نسبها قائلة في مذكّراتها: " إنني ولدت مسلمة من أب روسي وأم روسية مسيحية ولن أغير ديني أبدا" وفي مقام آخر تقول سوف أموت مسلمة مثل أبي.

وعليه فمن خلال كل هذه المرافعة حول الشكوك في نسبها تقف على أن المعنية بالدراسة هي ابنة تروفيموسكي وأن الغموض حول نسبها ما هو إلا محاولة تلطيخ سمعتها بسبب مواقفها من القضية الجزائرية ومساندتها المستميتة للشعب الجزائري.

2- نشأتها

تربت ايزابيل ابيرهارد في بيت فاخر محاط بحدائق غناء وسط عائلة ثرية على يد المربي الذي تبناها وكانت تناديه فافا VAVA ، لم تذهب غلى المدرسة لأن فافا تولى تدريسها، فتعلمت على يديه التاريخ والفلسفة والآداب واللغات الروسية والعربية والفرنسية والألمانية والانجليزية كما تعلمت فيما بعد التركية والأمازيغية كما كانت تقرأ القرآن ولم يتعد عمرها 15 سنة وكبرت في هذا الجو العلمي الديني المختلط الذي يجمع بين الشرق والعرب والمسيحية والإسلام[29]، فضلا عما تلقته من فافا من علوم ولغات فقد

تعلمت منه كل ما تعلق بمناحي الحياة نجحت ابتاع لها حصانا وعلمها ركوب الخيل وذلك لما ساعدها فيما على احتراف الصحراء، لما كبرت التحقت بالثانوية بجينيف واستفادت من جوها كما استفادت من المكتبة العائلية الزاخرة بكل أنواع الكتب الأمر الذي فتق في شخصيتها الرغبة الملحة على الاستكشاف ومن هناك بدأت تملأ كراريسها بالملاحظات[30].

3- المحن التي عاشتها

كان قدر الرحالة أن ترافقها المحن منذ ولادتها حتى وفاتها ورغم ذلك لم تستسلم لها، فمنذ صغرها عاد أخوها نيكولا غلى روسيا وربيب أمها كوستانتان ثم استدعاءه غلى روسيا لاعتبارات كثيرة منها الولادة غير الشرعية لايزابيل، أما أخوها الثالث فلاديمير فقد انتحر بالبيت العائلي وأختها نتاليا فرّت مع عشيقها إلى باريس والتحق أخوها الصغير أوغستان بفيلق المرتزقة الأجانب بسيدي بلعباس حيث كان يراسلها من هناك وحبب إليها طبيعة الجزائر والجزائريين[31]، فأصبحت الجزائر تلح عليها يوما بعد آخر.

إن كل تلك المحن لم تؤثر في شخصيتها آنذاك لتغيير ذلك الجو ذهبت إلى باريس وكتبت لعدة جرائد وتعرفت على عدة صحافيين مثل المصري أبو نظارة هو "يعقوب صنوع" رائد المسرح المصري ومن خلالها تعرفت على التونسي عبد الوهاب الذي أصبح فيما بعد صديقها الوفي وكل ذلك أضاف أشياء غلى شخصيتها وأصبحت تعرف الكثير عن الشرق وعن الثقافة والدين الإسلامي ودعم ما كان يكتبه أليها أخوها أوغستان من سيدي بلعباس كما أشرت قبل قليل، كما أن كل ذلك كان يسبب الفظيعة لها وكل ما يمت إلى ماضيها بصلة، إلى أن قررت مع والدتها الخروج من أوربا إلى الجزائر، تبحثان عن مخرج وبداية جديدة في وطن جديد وبعقيدة جديدة[32].

كانت وجهة البنت ايزابيل وأمها ناتالي الجزائر مدينة عنابة وبالضبط في ماي 1897،وسكنتا في حي راقٍ وسط عائلات أوروبية كلتاهما رفضتا تلك الإقامة ورحلتا للاستقرار في الحي الغربي بحيث لقيتا كل الترحيب[33]، لقيت ايزابيل بتلك المدينة ما

كانت تطمح إليه بحيث الحياة الشرقية التي أحبتها وترسخ شغفها بنمط الحياة الشرقي، وأخيرا لبت نداء الإسلام واعتنقت ذلك الدين الحنيف وسمت نفسها فاطمة[34]، ولكن وبعدما اكتشفت لذة الحياة الشرقية وحلاوة الإسلام لم تتوقف مصائبها من السقوط على رأسها ورغم ذلك كان سلاحها الصمود والتحدي، فقد بليت لوفاة أمها التي أسلمت هي أيضا في عنابة وكانت وفاتها في نوفمبر 1897 وبعد أسبوعين عادت إلى جنيف حيث لقيت والدها يصارع الموت فرافقته حتى توفي في ربيع سنة 1899 م[35].

4- بداية الرحلة إلى الجزائر

بعد وفاة متبنيها فافا غادرت ايزابيل سويسرا ومنها اتجهت إلى مرسيليا ومنها إلى تونس ومن هناك كانت وجهتها باتنة التي أقامت فيها مدّة طويلة ثم توجهت إلى بسكرة فتوفرت منها إلى وادي سوف التي وصلتها يوم 02 أوت 1900 باسم مستعار وهو محمود السعدي برغبة الإقامة الدائمة[36].

في وادي سوف بدأت حياتها وأخذت مسار المغامرة وبالكتابة أخذت طريق التحدي فوقعت في حب الصحراء أولا، وثانيهما حب سليمان حنى واشترت حصانا واندمجت مع الأهالي مساعدة لهم ممرضة، كاتبة وقارئة رسائل، تعبّر عن الامهم ، تزور زواياهم[37]، بوادي سوف دائما بدأت حياة جديدة، فغرمت بطبيعتها وانخرطت في الطريقة القادرية بعميش وتعرفت على شيخها الهاشمي وأصبحت من مريداته[38] كما تعرفت على سليمان حني الذي ملأ حياتها وأصبح زوجا لها بعد متاعب كثيرة[39].

وفي 29 جانفي 1901 تعرضت إلى الحادث بمنطقة البهيمة قرب الودي حيث كانت رفقة الشيخ الهاشمي حيث تقدم إليها أحد أتباع الطريقة التيجانية المتصارعة مع الطريقة القادرية حول النفوذ بمنطقة وادي سوف وضربها بسيف أصابها في الذراع إصابة خطيرة بدعوى أهانتها للإسلام[40]، ومكثت بالمستشفى وتركت المحكمة الحكم بيدها في محكمة قسنطينة يوم 18 يونيو 1901 فعفت عنه، وصدر الحكم بالأشغال الشاقة على الجاني وبطرد ايزابيل ابيرهارد من الجزائر نظير طريقة حياتها وتصرفاتها المريبة

في نظر السلطات الاستعمارية وألصقوا بها كل التهم[41]، الجاسوسة و اللقيطة أو عاهرة أو غير ذلك من التهم الموجهة لها لأنها تولت كشف عيوبه عبر كتاباتها[42].

بعد قرار المحكمة بطرد ايزابيل من الجزائر، ركبت هذه الأخيرة الباخرة من سكيكدة نحو مرسيليا التي قضت أياما وشهورا في انتظار "سليمان حنى" الذي وصل في أواخر أوت 1901 وأقدم على الزواج الرسمي من إيزابيل في منتصف شهر أكتوبر 1901 ببلدية مرسيليا، وبهذا الزواج أصبحت إيزابيل تتمتع بالجنسية الفرنسية الأمر الذي سهل عليها العودة إلى الجزائر في 14 جانفي 1902 حيث أقامت هي و زوجها في بلدية القصبة بمدينة الجزائر[43]، وأثناء تواجدها بالجزائر تعرفت على فيكتور باروكان، الذي اكتشف موهبتها ككاتبة وصحفية وشجعها على الكتابة ونشرها مقالات خصص لها مرتبا شهريا منتظما[44]، وتولت تغطية الأحداث في جريدة الأخبار[45] وكانت أول مراسلة حرب عبرها.

5/ مؤلفاتها

- ايزابيل ابيرهارد: رحالة كنت
- ايزابيل ابيرهارد: ياسمينة، أحسن داوس
- عودة العاشق المنفى (كتابات ايزابيل ابيرهارد عن سوف) ترجمة الأستاذ ميهوبي عبد القادر، دار الوليد ،وادي سوف، 2006).
- الطريق إلى القنادسة أو في ظلال الإسلام الدافئة، ميهوبي عبد القادر، مطبعة مزوار، الوادي،2012.
- Isabelle Aeberhard : Ecrits Intimes petit Bibliothèque, Payot Paris SD.
- Isabelle Aberhard : Mes Journaliers les introuvables، ed d'Aujourd'hui Paris. S.D
- Isabelle Aberhard : à l'embre al l'Islam. Trede.

6/ رحلتها إلى زاوية الهامل (1902) (1903م)

كانت زيارتها إلى زاوية الهامل لأول مرة في جوان 1902 والثانية في جانفي 1903،وكانت لالة زينب آنذاك كانت تعاني الحصار والمرض وتحت طائلة العقوبات والضرائب والحصار الإعلامي والتهديد .

المبحث الثالث: كتابات الرحالة حول زاوية الهامل و لالة زينب

كانت زيارة دو قالون هي الأولى إلى المنطقة وأكثر توسعا ولكن بالنسبة لزاوية الهامل فقد كانت سباقة لرحلة بول أودال أو لرحلة ايزابيل ابيرهارد، حيث جاءت الرحلة بعد وفاة الشيخ محمد بن أبي القاسم مباشرة، أين وصف تأبينية المؤسس في مسجد الموامين ببوسعادة في 16 جويلية 1897 وتوسع في ذكر الهامل واشراقتها [46] وأتباعها وكانت الزاوية آنذاك في مرحلة القوة كما تطرق غلى عدد طلاب الزاوية وصل إلى 400[47] ولكن نظراً لتقدم رحلته حيث كانت في الأيام الأولى لوفاة المؤسس، فلم يعرف أو يكتب عن حقيقة الصراع وعليه فالأيام الأولى لتولي لالة زينب المشيخة كانت فترة قوة والتفاصيل سترد لاحقا

إن الفترة التي عاشتها لالة زينب مع والدها ومرافقته له ومساعدته في أعماله أعطاها صفة القداسة، فبعد وفاة والدها طلبت تستقبل المعزين وتقوم بضيافتهم وكانت الزيارات تتهاطل عليها مثلما كانت عهد والدها[48] ورفض أغلب الاخوان الإجازة أو الرسالة التي استظهرها كروشار وبالتالي واصلت السيدة زينب تقديم الورد وتعيين المقدمين[49] وبحكمتها حافظت على ثروات والدها وأوقاف اليتامى والفقراء وواصلت تقاليد الأعمال الخيرية ولم تبذر أموال الزاوية ذلك هو الظرف الذي زار فيه دوقالون الزاوية [50].

ثم كانت زيارة بول أودال حيث سجل الزيارة بتاريخ 1899 وقد سجل لنا إحاطتها برجال مستعدين للدفاع عنها نظراً لسلطتها الروحية التي تتمتع بها والمهام التي تنهض بها ولا يقوم بها إلا الرجال سهرا وتخطيطا ومتابعة وإدارة ومسالمة واتصالات مع

سلطات الاحتلال وقد أشار فضلا عن أدبها وثرائها[51] ، وظروفها الصحية التي بدأت تسوء بفعل إصابتها بحمى اجتاحت المنطقة إلى تواجدها بقصر والدها أما ابن عمها فقد كان يتواجد في الطابق الأول من الزاوية بقصر صغير[52]، وعليه فزيارة بول أودال كانت قصيرة ولم تدم سوى ساعات قلائل وانتهت بعد اطلاعه على مجوهراتها، كما جاءت في وقت كانت الفتنة في الزاوية في بدايتها ولم تعصف بشكل قوي بعد ! وعليه فرحلته لم تعطنا الكثير عن الأزمة رغم تحكمه في الكتابة الصحفية كما أشرت سابقا ، أما الرحالة ايزابيل ابيرهارد التي زارت الزاوية فقد كانت في ظرف صعب.

المطلب الأول: زيارة الرحالة ايزابيل ابيرهارد

زارت ايزابيل ابيرهارد الزاوية في أصعب مرحلة كانت تمر بها هذه الزاوية عهد السيدة زينب كما أن لالة زينب كانت تمر بظروف صعبة أيضا، فبعد ما وقفت بوصية والدها، وتحدث الإدارة الاستعمارية التي كانت مصممة على توليه الشيخ محمد بن الحاج محمد، وقفت بوصيتها تلك وعملت مثلما عمل ابن عمها على مراسلة الإخوان والمقاديم لحفظ ما تحت أيديهم من أملاك ومواشي وعقارات حتى يأتي من يقبضها من طرفها[53].

و أمام إصرار لالة زينب على المشيخة عمل قائد القطاع العسكري محاصرتها بكل أنواع التهديد والضرائب ومنع الزيارات واعتقال انصارها[54] كما سبق وان أشرت بالتفصيل، وكانت آثار تلك الفتنة قاسية على السيدة زينب وعلى الزاوية معاً فمثلا من حيث التعليم انخفض عدد الطلبة لاسيما بعد أن فتح ابن عمها سي محمد بن الحاج محمد مدرسة غير مدرسة الزاوية وبالتالي زاوية الهامل التي كان بها 300و 400 تلميذ في عهد الشيخ المؤسس، انخفض العدد وأصبح لا يتجاوز 60 طالبا هذا إضافة إلى أن عدد الطلبة قد انخفض بفعل تلك الفتنة وانخفض العدد وخاصة بعد رحيل المعلمين والفوضى العارمة التي عاشتها الزاوية[55] عهد لالة زينب، وبفعل محاصرة لالة زينب وقلة جولاتها وقلة زياراتها ، فبعد ما كانت الزيارات عهد الشيخ المؤسس بين 7و8 آلاف زائر

سنويا في نهاية 1898 فقد انخفض العدد وتأثر ازدهار الزاوية وبدأ تقهقرها وتذمر الأعيان من ذلك الوضع[56]

والأكثر من ذلك فزيارة ايزابيل ابيرهارد للزاوية دامت لعدة أيام ولمرتين متتاليتين لأول مرّة في جوان 1902 وثاني زيارة كانت في جانفي 1903 كما لم تكن الزيارة رجل لامرأة كما فعل سابقتها بل كانت زيارة امرأة لامرأة فضلا على أن ايزابيل تحمل هموم الأهالي وتكتب عنهم متحدية الإدارة الاستعمارية وتدافع عن المرأة المسلمة. بل جرأة، والأهم هو أن رحلة ايزابيل ابيرهارد لم تكن كرحلة محبا للفن أو جامع للمجوهرات بل كانت رحلتها أشبه بتغطية صحفية ذات أبعاد حضارية.

ورغم التقاء الرحالة الثلاثة في الكتابة و الكتابة الصحفية بالذات إلا أن ايزابيل ابيرهارد، كرحالة ثم مسلمة عصامية، في الإعلام تمرست على الخبر منذ ذهابها إلى باريس إلى جينيف لتغيير الجو فهناك كتبت لدة جرائد وعملت بأجور زهيدة وأثر فيها صحافيون وكتاب[57]، واستقرارها بوادي سوف كانت تكتب بشغف عن الأهالي وبقلب مجروح على ما يحدث لهم[58] فوثقت كل شيء في يومياتها وعاشت محن الناس المضطهدين المحرومين فوصفتهم بكل مصداقية وإخلاص وأظهرت تورط فرنسا في عدّة قضايا إجرامية وغير إنسانية غير التراب الجزائري، ومن خلال كتاباتها عن آلام الجزائريين وظلم فرنسا من ضرائب وعقوبات ونفي للمقاومين إلى كيان وكاليدونيا وتقييد جميع الحريات[59]، وقد نشرت تلك المعاناة في عدة جرائد ومن خلال ذلك كشفت سياسة فرنسا، ونهب الأراضي والتمييز العرقي[60].

وأمام قضية البهيمة وما أنجز عنها من ظلم عنصري وأبعاد وإلصاق التهم شخصيا مست بكرامتها ونسبها نضجت وأدركت أكثر ألاعيب المستعمر وخبثه ضد العنصر الأهلي ففضحت قضية البهيمة في جريدة لا ديباس الجيريان من مرسيليا يوم 7 جوان 1901 وبعثتها برسالة تصحيحية[61].

بعد زواجها في مرسيليا مع سليمان حني عادت إلى الجزائر وتوجت ماضيها بانضمامها إلى جريدة الأخبار وأصبحت مراسلة حرب ففتحت أمامها أبواب للكتابة وكشف سياسة فرنسا وغطت مقاومة الجنوب الوهراني بكل حكمة واقتدار[62].

وعليه فبكل هذه التجربة والخلفية الحضارية كانت زيارتها لزاوية الهامل حيث كانت لالة زينب تمر بأصعب مراحل حياتها، بين طلب ابن عمها للمشيخة تهديدات الحاكم العسكري وحصاره للزاوية كما ذكرت وزادها ألما تدهور حالتها الصحية !!وتهديد كروشار بتهديم المؤسسة هنا إضافة إلى ذلك الحصار الإعلامي المضروب على لالة زينب رغم خدماتها.

يعود الفضل إلى ايزابيل ابيرهارد في ظهور قصة لالة زينب إعلاميا وأخرجتها من الظل وأبرزت دورها الإنساني في خدمة المحرومين، وأصدرت لها صورة على جريدة الأخبار ورافقتها حوارات منطوية على أفكار ورؤى وتصورات كلها نابعة من فلسفة القيم الإسلامية المؤسسة على التضامن والتكافل الاجتماعي وكل ذلك أدهش الكثيرين وقاموا بزيارتها من استراليا وأوربا وأمريكا للتعرف عن قرب على هذه الشخصية العظيمة،امرأة تحدت الإقامة الجبرية ومع ذلك تسيّر 100 زاوية تأوي آلاف الطلبة والمعوزين والأرامل وحبوس آلاف الهكتارات والمواشي ولها امتدادات في مكة والمدينة كخادمة للحرمين الشريفين، استطاعت ايزابيل أن توقض الرأي العام الفرنسي فرفض الحاكم العام تدمير مبنى زاوية الهامل وأصبح لها أحقية تسيير الزاوية[63].

الخاتمة

عرفت ربوع أولاد نائل بشساعتها وانتشار الطريقة الرحمانية بها مبكرا، كما عرفت تلك الربوع بزاوية الهامل القاسمية التي تربعت على عرش الرحمانية في المنطقة بالعلم والثراء والانتشار الواسع عهد مؤسسها سي محمد بن أبي القاسم.

بعد وفاة المؤسس ظهر الصراع حول توليه الخلافة والتركة بين ابنة الشيخ المؤسس التي استظهرت وصية والدها وبين ابن عمها سي محمد المدعوم من طرف سلطات الاحتلال.

أمام صمود لالة زينب وتمسكها بحقوقها فرضت عليها السلطات الاستعمار كل أنواع القهر فضعفت الزاوية، في ذلك الظرف العصيب الذي كانت تمر به الزاوية ولالة زينب زار الزاوية رحالة، فكانت رحلة دوفالون في الأيام الأولى لوفاة الشيخ المؤسس ورحلة بول أودال سنة 1899 حيث الأزمة لم تشتد بعد ولكن رحلة ايزابيل ابيرهارد كانت في قمة الأزمة.

باحترافيتها العالية وخلفيتها كتبت كل شيء عن السيّدة زينب ودورها وصراعها مع المرض ومع الاستعمار واستطاعت أن توصل صوت لالة زينب غلى الخارج وتوقفت مخططات فرنسا ضد الزاوية ومشيختها حتى توفيت سنة 1904.

الهوامش:

---

1 الطيب شنتوف:دراسات في تاريخ الجزائر خلال القرنين 19-20، ترجمة أودايينة خليل،د م ج ، الجزائر، الجزائر، 2015، ص178.

2 Ahmed Nadir، la fortune d’un ordre, religieux algérien, le mouvement social N°89 ;octobre-decemrbre 1974 ;p62 – 63.

3 A.Nom : 16H61 opcit.

4 Ibid.

5 عبد المنعم القاسمي: زاوية الهامل مسيرة قرن من العطاء والجهاد، ص60-61.

6 ANOM :16H61

7 ANOM : 16H61 Correspondance de lalla Zineb avec quelque personnalité.

8 ANOM : Rapport du 22 Aout 1897 N° 105.

9 ينظر عبد العزيز راجعي: الصورة الجغرافية لمنطقة المسيلة من خلال رحلة دو فالون 1897، مجلة البحوث التاريخية الصادرة عن قسم التاريخ جامعة المسيلة، ع1، مارس 2017، ص121-122.

10 Galland(DE) :Excursion de Boussaada à Msila ollenddorf,Paris 1899 P08.

[11]Echo d'Alger :M : Charle de Gallond est mort hier du 23 mars1923, N° 4913.

ينظر عبد العزيز راجحي: المرجع السابق، ص126.

[12] Galland(DE):opcit p08.

[13] بيار جوردا: الرحلة إلى الشرق، رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الاسلامية في القرن التاسع عشر، ترجمة مي عبد الكريم وعلي بدر، الأهالي للنشر والتوزيع، ط1، دمشق، 2000، ص20.

[14] L'ouest Eclairer : Journal quotidien du 27.10.1937.

[15] Ibid.

[16] ينظر بتوسع اكثر خميسي السعدي: المجتمع والعمران بمدينة المسيلة في القرن19 من خلال رحلة بول أودال Paul Eudel

الملتقى الوطني الخامس حول تاريخ وأعلام المسيلة (05،07 / 12 /2016) دار الثقافة، المسيلة الجزائر، ص04.

[17]المرجع نفسه، ص04.

[18]خميسي السعدي: المرجع السابق، ص50.

[19] Paul Eudel : d'Alger à Boussaada.

[20] عمر بن قينة: صورة الجزائر ارضاً وإنساناً لدى رحالة فرنسي 1899 من الجزائر إلى بوسعادة برج بوعريريج والمسيلة ، منشورات تالة، الجزائر، 2010، ص93.

[21]أدمونت شارل رو: رحالة كنت، نقله إلى العربة فرحات الباروني، دار الجنوب للنشر، تونس، ص 7-9.

[22] سارة مبروكي ورحيمة قليل: مداخلة حول الكتابات الشخصية في كتابة تاريخ الجزائر، ايزابيل ابيرهارد انموذجا في الملتقى الخاص بأهمية المذكرات والكتابات الشخصية في الكتابة التاريخية، جامعة الجزائر، ص1-3.

[23] السبتي معلم: ايزابيل ابيرهارد، اللغز الدائم، دار عمار قرفي، باتنة، الجزائر، 2012، ص89.

[24]المرجع نفسه، ص 89.

[25] Voir Rapport d'Isabelle au Gouverneur General oprés son Attentat d' Assassinat date du 7Juin1901.

Voir Aussi,

Rene louis doyon : Isabelle Aberhord, Mes Journaliers precedé de la vie Tragique de la bonne Namade

Les Introuvables, éd, Aujourd'hui Paris SD P 174.

Isabelle Aberhard : lettres Anonymes, reçues par le General, Ecrits in times petite Bibliothèque, Payot, paris, SD, P178-279.

[26] ينظر سارة مبروكي وسامية قليل: دور الكتابات الشخصية في كتابة تاريخ الجزائر، ايزابيل ابرهارد نموذجا، مداخلة في الملتقى الوطني الأول حول المذكرات والكتابات الشخصية، جامعة عاشور زيان، ص05.

[27] ارميني الأصل اعتنق الإسلام فيما بعد وقد كان قسا، متزوج وأب لثلاثة أبناء في روسيا وكان يعمل لمدرس ومربي لأبناء العائلات الارستقراطية، عالما، مثقفا، فيلسوفا، يتقن اللغة التركية، الألمانية، العربية والروسية، بعد عودة الجنرال إلى روسيا بقي مع العائلة ونظرا للقوانين الروسية تمنع زوجة ثانية أو ترسيمه، فقد مكث مع ناتالي دون أن يرسم زواجه منها وفق ما اقتضاه العرف والقانون آنذاك وولدت ايزابيل ايبرهارد وتبّناها.

ينظر: السبت معلم: ايزابيل ابيرهارد، اللغز الدائم، دار عمار قرفي، باتنة، الجزائر،2012، ص27.

[28] أحسن داوس ، ايزابيل ابيرهارد ياسمينة وقصص أخرى، ، المجلس الوطني للثقافة والفنون، سلسلة ابداعات عالمية ع 390، الكويت، 2012، ص19.

[29] السبتي معلم: المرجع السابق، ص29.

[30] المرجع نفسه.

[31] السبتي معلم: المرجع السابق، ص 33-34.

[32] المرجع نفسه، ص36

[33] موند شارل رو: المصدر السابق.

[34] المرجع نفسه.

[35] المرجع نفسه.

[36] بلعراج بوداود: إيزابيل ابيرهارد، الفارسة العاشقة الثورة الجزائرية، مجلة العربي الكويتية ع558، ماي، 2005.

[37] المرجع نفسه.

[38] ادوارد شارل رو: رحالة كنت، ص 9-10.

[39] بلعراج بوداود: المرجع السابق.

[40] ابو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، عالم المعرفة، الجزائر، 2015، ص 389.

[41] ابو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص389.

[42] السبتي معلم: المرجع السابق.

[43] المرجع نفسه ، ص 111.

[44] السبتي معلم، ص.11

[45] صدرتها الولاية العامة سنة 1839 باللغة الفرنسية وحدها وبداية 1903 وتحت اشراف فيكتور باروكان وإيزابيل ابيرهارد وتطبيقا لسياسة التقرب من الرأي الاسلامي العام في الجزائر رار باروكان أن يضيف لها صفحات باللغة العربية، رغم نزعة ايزابيل الإسلامية الصادقة وكرهها للاستعمار فإن باروكان ما كان يسمح لها بظهور هذه النزعة في جريدة ظهرت بايعاز من شارل دونار. ينظر محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939، ش و، ن، ت الجزائر، 1980، ص27.

[46] De Gallond (Charches) : opeit p 76 et suite.

[47] Ibid

[48] 2U22 Corresp, Comm,sup cercle de Boussaada gén, comm dur d'Alger 19Aout1879.

[49] 2U22 Corresp, Comm, sup de Boussaada _ génécommsubd du médéa 4Mares 1899.

[50] Ibid.

[51] ينظر: عمر بن قينة: الفصل الثامن من كتابه صورة الجزائر أرضا وسكانا لدى رحالة فرنسي 1899 من الجزائر إلى بوسعادة، منشورات تالة: الجزائر 2010 ص (64-71).

[52] Paul Eudel : d'Alger à Boussaada, Ecrit Augustin chaleimel lib Maritime colonial(1904) p187.

[53] عبد المنعم القاسمي: زاوية الهامل، 60-61.

[54] 16H61 Correspondance de lAlla Zineb.

[55] 16H8.Rapport résumant les faits intéressant 2eme semster 1897.

[56] 2U22 Correspondance au comm , sup du cercle de Boussaada 19 Février 1898. En Fait, elle émanerait. D'après L'autorité local des partisans de Mohamed ben El hadj –Mohamed.

[57] ايزابيل ايبرهارد: ياسمينة ص36.

[58] ايزابيل ابيرهارد: دعوة عاشق المنفى.مرجع سابق

[59] ايزابيل: ياسمينة.

[60] المرجع نفسه.

[61] ينظر La Dépêche Algérienne du 7Juin 1901 وكذلك: ايزابيل ايبرهارد، عودة العاشق المنفى، ص194.

[62] السبتي معلم: المرجع السابق.

[63] جمال غلاب: ضلال من الجزائر، ص61 --.